

أبو الحسن

أبو الحسن

(١) «أَبُو الْحَسَنِ» وَأَصْحَابُهُ

نَشَأَ «أَبُو الْحَسَنِ» فِي مَدِينَةِ «بَغْدَادَ» فِي زَمَنِ الْخَلِيفَةِ «هَارُونَ الرَّشِيدِ». وَكَانَ أَبُوهُ غَنِيًّا جِدًّا، فَلَمَّا مَاتَ وَرِثَ مِنْهُ أَمْوَالًا كَثِيرَةً، فَقَسَمَهَا قِسْمَيْنِ مُتَسَاوَيْنِ، وَادَّخَرَ نِصْفَ ثَرْوَتِهِ، وَوَقَفَ النِّصْفَ الْآخَرَ عَلَى مَسَرَّاتِهِ وَمَبَاهِجِهِ، فَاجْتَمَعَ حَوْلَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَصْحَابِ الَّذِينَ تَظَاهَرُوا لَهُ بِالْحُبِّ وَالْإِخْلَاصِ. وَكَانَ أَبُو الْحَسَنِ يَنْصَفُ ثَرْوَتَهُ فِي زَمَنِ قَلِيلٍ. ثُمَّ تَظَاهَرَ لَهُمُ بِالْفَقْرِ، فَهَجَرُوهُ وَامْتَنَعُوا عَنْ زِيَارَتِهِ.

(٢) بَيْنَ «أَبِي الْحَسَنِ» وَأُمِّهِ

فَذَهَبَ «أَبُو الْحَسَنِ» إِلَى أُمِّهِ بَاكِيًا، وَقَصَّ عَلَيْهَا غَدْرَ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ هَجَرُوهُ لِفَقْرِهِ، فَقَالَتْ لَهُ: «إِنَّهُمْ لَمْ يُصَاحِبُوكَ إِلَّا لِمَالِكَ، فَلَمَّا عِلِمُوا بِفَقْرِكَ هَجَرُوكَ، فَاحْتَفِظْ بِالنِّصْفِ الْآخَرِ مِنْ ثَرْوَتِكَ، وَانْتَفِعْ بِهَذَا الدَّرْسِ الْقَاسِيِ الَّذِي تَعَلَّمْتَهُ يَا وَلَدِي.»

(٣) خُطَّةُ «أَبِي الْحَسَنِ»

فَاقْسَمَ «أَبُو الْحَسَنِ» أَنَّهُ لَنْ يَعُودَ إِلَى مُصَاحِبَةِ رِفَاقِهِ الْقَدَمَاءِ، وَلَنْ يُصَاحِبَ بَعْدَ الْيَوْمِ إِلَّا الْغُرَبَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُهُمْ، وَلَنْ تَدُومَ صُحْبَتُهُ مَعَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَكْثَرَ مِنْ لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ؛ فَكَانَ يَقِفُ عَلَى الْجِسْرِ وَقْتَ الْغُرُوبِ، فَإِذَا رَأَى غَرِيبًا قَادِمًا عَلَيْهِ دَعَاهُ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَضَافَهُ

عِنْدَهُ وَأَكْرَمَهُ طُولَ لَيْلَتِهِ، فَإِذَا طَلَعَ الصُّبْحُ وَدَّعَهُ وَأَنْكَرَهُ، وَأَبَى أَنْ يُسَلِّمَ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَبَدًا. وَقَدْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِهَذِهِ الْخُطَّةِ سَنَةً كَامِلَةً.

(٤) «هَارُونُ الرَّشِيدُ»

وَوَقَفَ «أَبُو الْحَسَنِ» — عَلَى عَادَتِهِ — ذَاتَ مَسَاءٍ عِنْدَ الْجِسْرِ، فَرَأَى الْخَلِيفَةَ «هَارُونَ الرَّشِيدَ»، وَكَانَ قَدْ خَرَجَ فِي زِيٍّ تَاجِرٍ قَادِمٍ مِنَ «الْمُوصِلِ»، وَمَعَهُ خَادِمُهُ، فَرَحَّبَ بِهِ «أَبُو الْحَسَنِ»، وَدَعَاهُ إِلَى بَيْتِهِ، بَعْدَ أَنْ أَخَذَ عَلَيْهِ الْمَوَاقِفَ أَنْ يَبِيتَ عِنْدَهُ لَيْلَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ لَا يَلْقَاهُ بَعْدَهَا أَبَدًا. فَعَجِبَ الْخَلِيفَةُ، وَسَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ هَذَا، فَأَخْبَرَهُ «أَبُو الْحَسَنِ» بِقِصَّتِهِ كُلِّهَا، فَاشْتَدَّ عَجْبُهُ، وَسَارَ مَعَهُ الْخَلِيفَةُ وَخَادِمُهُ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى الْبَيْتِ. وَرَأَى الْخَلِيفَةُ مِنْ كَرَمِ «أَبِي الْحَسَنِ» مَا أَدْهَشَهُ فَسَأَلَهُ: «أَلَا تَتَمَنَّى شَيْئًا يَا أبا الْحَسَنِ؟» فَقَالَ لَهُ: «أَتَمَنَّى أَنْ أَصْبَحَ خَلِيفَةً، وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا، لِأَعَاقِبَ خَمْسَةَ مِنَ الْأَشْرَارِ، يَعْيشُونَ بِالْقُرْبِ مِنْ مَنْزِلِي، وَيَدْخُلُونَ فِيمَا لَا يَغْنِيهِمْ، وَلَا يُسَلِّمُ أَحَدٌ مِنْ شَرِّهِمْ.»

(٥) فِي قَصْرِ الرَّشِيدِ

فَضَحِكَ الْخَلِيفَةُ مِنْ قَوْلِهِ، وَعَزَمَ عَلَى تَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِهِ. ثُمَّ غَافَلَهُ وَوَضَعَ دَوَاءً مُنَوِّمًا فِي شَرَابِهِ، فَلَمْ يَكِدْ يَشْرَبُهُ حَتَّى نَامَ، فَأَمَرَ الْخَلِيفَةُ خَادِمَهُ أَنْ يَحْمِلَ «أبا الْحَسَنِ» إِلَى قَصْرِهِ، وَيَضَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ، وَيُلْبِسَهُ مَلَابِسَهُ. ثُمَّ أَمَرَ كُلَّ مَنْ فِي قَصْرِهِ أَنْ يُطِيعُوا «أبا الْحَسَنِ» فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ، بَعْدَ أَنْ يُوهِمُوهُ أَنَّهُ هُوَ الْخَلِيفَةُ «هَارُونُ الرَّشِيدُ».



(٦) دَهْشَةُ «أَبِي الْحَسَنِ»

وَلَمْ يَكِدِ الْفَجْرُ يَطْلُعُ حَتَّى أَيْقَظُوهُ مِنْ نَوْمِهِ، فَدَهَشَ «أَبُو الْحَسَنِ» حِينَ رَأَى نَفْسَهُ فِي سَرِيرِ الْخَلِيفَةِ — وَهُوَ مِنَ الذَّهَبِ الْإِبْرِيْزِ — وَحَوْلَهُ الْجَوَارِي وَالْخَدَمُ يُنَادُونَهُ خَاشِعِينَ: «عَمَّ صَبَاحًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ». وَظَنَّ «أَبُو الْحَسَنِ» أَنَّهُ فِي حُلْمٍ، فَلَمَّا اثْبَتُوا لَهُ أَنَّهُ يَقْظَانُ، وَأَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ الْخَلِيفَةُ عَظُمَتْ دَهْشَتُهُ.

(٧) عَلَى عَرْشِ الْخَلِيفَةِ

ثُمَّ مَثَلَ الْوَزِيرُ «جَعْفَرُ» بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَالَ لَهُ: «لَقَدْ اكْتَمَلَ الْمَجْلِسُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ». ثُمَّ سَارَ مَعَهُ حَتَّى أَجْلَسَهُ عَلَى عَرْشِ الْخَلِيفَةِ، وَهُوَ حَائِزٌ ذَاهِلٌ مِنْ شِدَّةِ الدَّهْشَةِ. وَكَانَ الْخَلِيفَةُ يُرَاقِبُهُ مِنْ نَافِذَةِ عَالِيَةِ، وَقَدْ تَمَلَّكَهُ السُّرُورُ وَالْفَرَحُ.



وَلَمْ يَكُنْ «أَبُو الْحَسَنِ» يَجْلِسُ عَلَى الْعَرْشِ حَتَّى أَمَرَ كَبِيرَ الشَّرْطَةِ أَنْ يُنْكَلَ بِأُولَئِكَ الْأَشْرَارِ الْخَمْسَةِ، أَعْنِي: يُعَاقِبُهُمْ عِقَابًا شَدِيدًا يَجْعَلُهُمْ عِبْرَةً لِغَيْرِهِمْ، كَمَا أَمَرَهُ أَنْ يُعْطِيَ أُمَّ «أَبِي الْحَسَنِ» كَيْسًا فِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ. وَبَعْدَ قَلِيلٍ ذَهَبَ «أَبُو الْحَسَنِ» إِلَى غُرْفَةِ أُخْرَى، فَحَضَرَتِ الْجَوَارِي وَظَلَّلْنَ يَعْزِفْنَ عَلَى الْعُودِ وَيُغَنِّينَ أَحْسَنَ الْغِنَاءِ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُ: أَهْوَى فِي يَقْظَةٍ أَمْ هُوَ حَالِمٌ؟

(٨) فِي بَيْتِ «أَبِي الْحَسَنِ»

وَلَمَّا أَقْبَلَ اللَّيْلُ وَضَعُوا لَهُ فِي شَرَابِهِ دَوَاءً مُنَوِّمًا، فَلَمْ يَكُنْ يَشْرَبُهُ حَتَّى نَامَ، فَحَمَلُوهُ إِلَى بَيْتِهِ. وَلَمَّا طَلَعَ الصُّبْحُ، وَرَأَى نَفْسَهُ نَائِمًا عَلَى سَرِيرِهِ، صَرَخَ مِنْ شِدَّةِ الدَّهْشَةِ وَالْأَلَمِ، فَجَاءَتْهُ أُمُّهُ وَسَأَلَتْهُ عَنْ سَبَبِ صِيَاحِهِ، فَقَالَ لَهَا: «أَلَسْتُ أَنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: هَارُونَ الرَّشِيدُ؟» فَقَالَتْ لَهُ: «هَلْ جُنُنْتَ يَا وَلَدِي؟ أَنْتَ أَبُو الْحَسَنِ.» فَقَالَ لَهَا: «كَلَّا بَلْ أَنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ.»

فَحَاوَلْتُ أَنْ تُسَلِّيهُ وَتُعِيدَ إِلَيْهِ عَقْلَهُ، وَقَصَّصْتُ عَلَيْهِ مَا نَزَلَ بِأَعْدَائِهِ مِنْ عِقَابٍ، وَأَخْضَرْتُ لَهُ الْكَيْسَ الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْهَا الْخَلِيفَةُ — أَمْسِ — وَفِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ. فَعَرَفَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ حَالِمًا، وَقَالَ لِأُمِّهِ: «الآنَ أَتَقْنَتُ أَنَّي أَنَا الْخَلِيفَةُ، وَقَدْ أَمَرْتُ — أَمْسِ — كَبِيرَ الشُّرْطَةِ بِضَرْبِ هَؤُلَاءِ الْأَشْرَارِ، وَإِرْسَالِ هَذَا الْكَيْسِ إِلَيْكَ.»



(٩) الْبِيمَارِسْتَانُ (المستشفى)

فَحَاوَلْتُ أُمُّهُ أَنْ تُقْنِعَهُ بِأَنَّهُ وَاهِمٌ فِي ظَنِّهِ، فَاشْتَدَّتْ ثَوْرَتُهُ وَهِيَاجُهُ، وَأَقْبَلَ الْجِيرَانُ يَسْأَلُونَ عَنِ الْخَبَرِ، وَمَا كَادُوا يَسْمَعُونَ قَوْلَهُ: إِنَّهُ الْخَلِيفَةُ حَتَّى اعْتَقَدُوا أَنَّهُ جُنٌّ. فَحَمَلُوهُ إِلَى

الْبَيْمَارِسْتَانِ حَيْثُ قَضَى شَهْرًا. وَلَمْ يُخْلَوْا سَبِيلَهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ عَادَ إِلَيْهِ رُشْدُهُ وَقَرَّرَ لَهُمْ أَنَّهُ
«أَبُو الْحَسَنِ».



(١٠) بَيْنَ الْخَلِيفَةِ وَأَبِي الْحَسَنِ

ثُمَّ خَرَجَ «أَبُو الْحَسَنِ» — عَلَى عَادَتِهِ — إِلَى جَسْرِ «بَغْدَادَ» فَلَقِيَ الْخَلِيفَةَ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَهُوَ
فِي زِيٍّ تَاجِرٍ، فَحَيَّاهُ الْخَلِيفَةُ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ تَحِيَّتَهُ، فَظَلَّ الْخَلِيفَةُ يَتَوَدَّدُ إِلَيْهِ حَتَّى رَضِيَ عَنْهُ
«أَبُو الْحَسَنِ»، وَدَعَاهُ إِلَى بَيْتِهِ، وَأَفْضَى إِلَيْهِ بِمَا حَدَّثَ لَهُ، فَتَأَلَّمَ الْخَلِيفَةُ لِمَا أَصَابَهُ.

(١١) فِي قَصْرِ الْخَلِيفَةِ

وَلَمَّا جَاءَ وَقْتُ النَّوْمِ أَلْقَى الْخَلِيفَةُ الدَّوَاءَ فِي شَرَابِ «أَبِي الْحَسَنِ»، فَقَامَ الْخَادِمُ وَحَمَلَهُ إِلَى الْقَصْرِ. وَجَاءَ الصَّبَاحُ فَأَيَّقُظُوهُ. وَرَأَى نَفْسَهُ فِي قَصْرِ الْخَلِيفَةِ مَرَّةً أُخْرَى، وَالْجَوَارِي حَوْلَهُ يُحَيِّينَهُ، فَارْتَبَكَ «أَبُو الْحَسَنِ»، وَكَادَ يُجَنُّ مِنَ الدَّهْشَةِ، وَخَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ فِي مَنَامٍ. ثُمَّ غَنَّتْهُ الْجَوَارِي، وَأَقْبَلْنَ عَلَيْهِ بِاسْمَاتٍ. وَجَاءَهُ الْوَزِيرُ «جَعْفَرُ» يُحْيِيهِ، فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ: «مَنْ أَنَا؟ أَتُرَانِي حَالِمًا؟» فَقَالَ لَهُ: «أَنْتَ الْخَلِيفَةُ هَارُونُ الرَّشِيدِ». فَقَالَ «أَبُو الْحَسَنِ» لِأَحَدِ الْخَدَمِ: «إِذَا كُنْتُ أَنَا فِي يَقْظَةٍ فَعَضَّ أُذُنِي، لِأَتَقَ بِأَنْنِي يَقْظَانُ، وَاتَّيَبْتَ مِنْ أَنْنِي لَسْتُ فِي حُلْمٍ». فَعَضَّ الْخَادِمُ أُذُنَهُ، فَصَرَخَ «أَبُو الْحَسَنِ» مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ، وَقَالَ: «الآنَ عَرَفْتُ أَنَّي لَسْتُ نَائِمًا، وَآيَقَنْتُ أَنَّي لَمْ أَكُنْ حَالِمًا. الْآنَ أَدْرَكْتُ أَنَّي الْخَلِيفَةُ هَارُونُ الرَّشِيدِ».



وَوَظَلَ «أَبُو الْحَسَنِ» يَعْجَبُ مِمَّا يَرَاهُ فِي قَصْرِ الْخَلِيفَةِ، وَهُوَ يَتَرَدَّدُ فِي تَصْدِيقِ مَا تَرَاهُ عَيْنَاهُ وَتَسْمَعُهُ أُذُنَاهُ. ثُمَّ صَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ، وَقَدْ كَادَ يُجَنُّ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: «لَا شَكَّ فِي أَنَّي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّي لَسْتُ أَبَا الْحَسَنِ!»



خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

وَكَانَ الْخَلِيفَةُ يَرَى ذَلِكَ كُلَّهُ وَيَسْمَعُهُ، فَدَخَلَ الْغُرْفَةَ، وَقَدْ كَادَ يَقَعُ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شِدَّةِ الضَّجِّكَ.

فَعَرَفَهُ «أَبُو الْحَسَنِ»، وَأَدْرَكَ حَقِيقَةَ أَمْرِهِ، وَارْتَمَى عَلَى قَدَمَيْهِ يَقْبَلُهُمَا. وَفَرِحَ بِهِ الْخَلِيفَةُ وَعَانَقَهُ، وَغَمَرَهُ بِالْهَدَايَا وَالْمَالِ، وَاتَّخَذَهُ نَدِيمًا لَهُ مِنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

محفوظات

الطَّالِبُ النَّشِيطُ

أَنَا لَا زِلْتُ تَلْمِيزًا صَغِيرًا
أَسِيرٌ إِلَى الْعُلَا سَيْرًا حَثِيثًا
وَلَيْسَ يَضِيرُنِي صَغَرِي، إِذَا لَمْ
وَمَا يُغْنِي الْفَتَى طَوْلٌ وَعَرَضُ،
فَلَيْسَ يُقَاسُ إِنْسَانٌ بِشَبْرٍ
وَنَبْتُ الْقَمْحِ مُرْتَفَعٌ قَلِيلًا
هُوَ الْقُوْتُ الَّذِي نَحْيَا جَمِيعًا
وَقَدْ يَعْلُو سَنَابِلُهُ نَبَاتٌ
وَكَمْ عُودٍ مِنَ الْقَصَبِ اعْتَلَاهُ
وَفَخْرُ الْمَرْءِ عِلْمٌ يَبْتَغِيهِ،
وَلَكِنِّي — عَلَى صَغَرِي — مُجْدٌ
وَأَنْشَطُ — نَحْوَ غَايَتِهَا — وَأَعْدُو
يُنَبِّطُنِي عَنِ الْعُلْيَاءِ جُهْدُ
إِذَا لَمْ يَغْنِهِ فَهَمٌّ وَرُشْدُ
لِيُعْرِفَ قَدْرَهُ إِنْ جَدَّ جِدُّ
وَلَكِنْ هَلْ لَهُ فِي النَّفْعِ حَدٌّ؟
بِهِ وَهُوَ الَّذِي مَا مِنْهُ بُدُّ
قَلِيلُ النَّفْعِ يُعْجِبُ حِينَ يَبْدُو
وَمَا هُوَ — رَفْعَةٌ — لِلْقَمْحِ نَدُّ
وَإِخْلَاصٌ يُحَالِيهِ وَكَدُّ

* * *

وَسَوْفَ أَكُونُ مِثْلَ الْقَمْحِ نَفْعًا
وَتُذْرِكُ هِمَّتِي شَرَفًا وَمَجْدًا
وَقَدِّمًا أَحْرَزَ السَّبْقَ الْمُجْدُ
وَحَسْبِي — غَايَةٌ — شَرَفٌ وَمَجْدُ